

الاستلزام الحواري في سورة "طه"

تحليل تداولي وفق نظرية غرايس

conversational implicature in Coran

Pragmatic study according to Grice's theory

ميروود سعاد

-جامعة المدية-

تاريخ القبول: 2018/04/02

تاريخ الإرسال: 2018/02/02

الملخص:

نتناول في هذا المقال قضية الاستلزام الحواري، إحدى أهم القضايا في الدرس التداولي الحديث، وميزة من ميزات اللغات الطبيعية وذلك من خلال مقال "المنطق والمحادثة" للفيلسوف الإنجليزي هربرت بول غرايس الذي نشر سنة 1975، سنحاول تطبيق نظريته في الحوار في سورة "طه" معتمدين على قواعد الحوار وعلى سياق السورة.

الكلمات المفتاحية: الاستلزام الحواري؛ مبدأ التعاون؛ قواعد الحوار؛ احترام القواعد؛ خرق القواعد؛ السياق.

Abstrat:

In this article we tackle a very Important issue in pragmatics entitled "conversational implicature", a characteristic of the natural languages and which was a subject of interest to the English philosopher Herbert Paul Grice mainly in his article 'Logic and conversation' published in 1975. We try to analyse the quranic conversations according to his theory relying on the maxims of conversation and the context.

1- مقدمة:

يسعى هذا العمل إلى تحليل الحوار في نموذج من القرآن الكريم "سورة طه" وفق التحليل الذي اقترحه الفيلسوف الإنجليزي هربرت بول غرايس⁽¹⁾ Herbert Paul Grice في نظريته "الاستلزام الحواري" والمشروحة في مقاله "المنطق والمحادثة" Logique et conversation الذي نُشر سنة 1975 وهذا ليس لأجل فهم المعاني الضمنية في القرآن

الكريم فقط، و لكن أيضا للاستدلال عليها و توضيح كيفية التوصل إليها دون المساس بقداصة القرآن طبعاً.

انطلق غرايس لإنشاء نظريته من ملاحظة مفادها أن المتكلمين -في كثير من الأحيان- يقولون شيئاً ويقصدون غير ما يظهر في كلامهم، و مع ذلك يتمكن المخاطب من فهم مقصود المتكلم، لأن المتحاورين في نظر غرايس يلتزمون بمبدأ عام هو مبدأ التعاون principe de coopération إضافة إلى أربع قواعد أساسية هي: قاعدة الكم، الكيف، الكيفية والمناسبة. و في حالة خرق واحدة من هذه القواعد أو أكثر، فإن هذا الخرق يدفع المتكلم بالقيام بمجموعة من الافتراضات من أجل الوصول إلى المعنى المستلزم عن طريق الاستدلال مستغلاً في ذلك سياق المحادثة وأعراف الاستعمال.

سنقوم أولاً بعرض نظرية الاستلزام الحواري لـ غرايس و المفاهيم الجديدة التي جاء بها لنتوجه بعدها إلى تحليل المقاطع الحوارية في السورة، مستلّين الحوار من السرد، ثم نبين معانيها الضمنية (نماذج) مستدلّين عليها بسياق السورة (مناسبة النزول) و مقام المحاور و العلاقة بين المتحاورين.

2- المفاهيم الجديدة في نظرية غرايس:

كان غرايس كغيره من أصحاب الفلسفة التحليلية⁽²⁾ يسعى إلى تحليل اللغات الطبيعية ، ليجد أن الاستلزام الحواري إحدى خصائصها الأساسية، و أدى به التحليل إلى إيجاد مفاهيم جديدة لم تكن موجودة من قبل.

2. 1- مفهوم الدلالة غير الطبيعية (signification non naturelle): ميز غرايس بين نوعين من الدلالة انطلاقاً من الفعل to mean في الإنجليزية الذي يحمل دلالتين: دلّ و قصد³. فالدلالة الطبيعية تتعلق بالظواهر التي ترتبط بعلامات تدل عليها، فهي علاقة سبب و نتيجة⁽⁴⁾، و مثال ذلك: رؤية الدخان تدل على وجود النار، و يقارن غرايس هذه الأمثلة بأمثلة أخرى من قبيل:

- إني أمشي مع سلحفاة، و المقصود: أنك بطيء جداً، أسرع.
- كأنك تكتب بقديمك، و المعنى: خطك رديء جداً و غير مفهوم.

هذه الأمثلة تحمل دلالة غير طبيعية أي أنها مرتبطة بمقصد المتكلم، حسب غرايس حين يتلفظ المتكلم بجملة ما، فإنه يبلغ شيئاً من خلال تركيبها وفي الوقت ذاته " يقصد شيئاً آخر ويحاول من خلاله التأثير في مخاطبه" (5). وهو ما جعل غرايس يميز بين الجملة والقول.

2.2- تمييزه بين الجملة والقول (phrase et énoncé): اقترح غرايس مقارنة في الإنتاج الجمل وتأويلها، حيث وجد أن تأويل جملة ما كثيراً ما يتجاوز الدلالة التي نعزوها إليها بالمواضعة، ولتوضيح مقارنته هذه يقدم المثال الآتي:

لنفترض أن (ل) و (م) يتحدثان عن صديقهما المشترك (ج) والذي يعمل الآن في بنك، يسأل (ل) عن أحوال (ج) في عمله في البنك، فيجيب (م): في تناغم جيد مع زملائه، ولم يدخل السجن بعد (6).

في تعليقه عن هذا الحوار يستعمل غرايس كلمات مهمة " أظن من الواضح أنه مَهْمَا كان (م) (المتكلم) يقصد، يوحي، يعني... فهو يتميز عما قاله، أي " لم يدخل السجن بعد" (7)، ويكون قد ميز بين "ما قيل" و "ما يراد قوله". فما قيل يتعلق بالمعنى العرفي للكلمة أو الجملة " (8) (و تدرس في إطار اللسانيات)، أما ما يؤدُّ المتكلم فعلاً قوله فهو القول (l'énoncé) وهو حاصل التلفظ بالجملة، ويتغير بتغير السياقات التي أنتج فيها (و يدرس في إطار التداولية).

إن هذا التمييز بين الجملة والقول مهد الطريق للحديث عن الاستلزام الحوارى المحكوم بقواعد والمبني على أساس الاستدلال.

2.3- الاستدلال غير البرهاني عند غرايس: (inférence non démonstrative)

وجهت بحوث غرايس الدراسات اللغوية نحو العلوم الإدراكية، حيث أدخل على عملية فهم الجمل مفهومي، يتمثل المفهوم الأول في الحالة الذهنية لدى المتحاورين أي مقاصدهم أثناء عملية التواصل، ويتمثل المفهوم الثاني في قدرة المتلقي على تأويل الأقوال (9)، بمعنى القيام بعملية الاستدلال من أجل الوصول إلى معرفة مقاصد المتكلمين. وقد رهن غرايس نجاح الحوار/ المحادثة أو عملية التواصل بهاتين القدرتين خاصة الثانية.

و من هنا فإن عملية التأويل تستند على الاستدلال (Inférence)، غير أن الاستدلال عند غرايس يختلف عن الاستدلال البرهاني (Inférencedémonstrative)، الذي ينطلق من عدد معين من المعلومات (المقدمات المنطقية) ليصل إلى نتيجة أو نتائج جديدة.. أما عند غرايس "فيتم استنتاج الاستلزام الحواري عن طريق صياغة الفرضيات ومحاولة إثباتها"⁽¹⁰⁾ وتتوقف عملية نجاح التواصل أو إخفاقه على نجاح عملية الاستدلال أي على صحة الفرضيات أو عدم صحتها بناء على فهم الأقوال أو سوء فهمها، ويعود سوء الفهم إلى عدم صحة فرضية واحدة من هذه الفرضيات والذي يفضي إلى عدم صدق النتيجة.

3- الاستلزام الحواري ومبادئ الحوار عند غرايس:

لوصف ظاهرة الاستلزام الحواري يقترح غرايس مجموعة من القواعد يعدها ضابطة لكل تبادل لغوي، وهذه القواعد يحكمها مبدأ عام هو "مبدأ التعاون".

1.3- مبدأ التعاون وقواعد الحوار الأربعة (principe de coopération et maxims)

(de conversation) : يرى غرايس أن نجاح التبادلات الحوارية يرجع -إلى حد ما - إلى مدى تعاون المتحاورين الذين يشتركون -إلى حد ما دائما - في هدف واحد لهذه المحادثة أو أهداف مشتركة، أو وجهة خطاب متفق عليها إما منذ بداية التبادلات عن طريق طرح سؤال مثلا، أو يظهر ذلك أثناء عملية التبادل الحواري. وقد تكون وجهة الخطاب واضحة محددة، كما قد تكون غير محددة لترك حرية التعامل للمتحاورين كما هو الحال في الحوارات اليومية الفجائية⁽¹¹⁾. فإذا انعدم الهدف المشترك " لن يكون ثمة سبب للتواصل، وقد لا يتم التواصل على الأرجح"⁽¹²⁾.

ويقصد غرايس بمبدأ التعاون: "اجعل مساهمتك موافقة لما يقتضيه الغرض من الحوار الذي تشارك فيه في المرحلة التي تتدخل فيها"⁽¹³⁾، وهو مبدأ إجتماعي أخلاقي ونوع من السلوك العقلاني، كما يؤسس مبدأ التعاون داخل التبادل الحواري حول مقاصد المشاركين، وهذه المقاصد ليست في الواقع صريحة، والحال أنها عناصر خفية تُعتمد في شكل اتفاق ضمني من قبل المتخاطبين الذين يسهرون على مجرى التواصل الحسن"⁽¹⁴⁾ ويمكن توضيح مبدأ التعاون في أعم صوره من خلال عرض لقواعد الحوار الأربعة.

الأساسية و هي قاعدة: الكم والكيف / النوعية و العلاقة / المناسبة و الطريقة /
الكيفية⁽¹⁵⁾.

1- قاعدة الكم: (Maxime de quantité)

يقصد منها الحيلولة دون أن يزيد أو ينقص المتحاورون من مقدار الفائدة المطلوبة
و تتفرع إلى:

- لتكن إفادتك للمخاطب على قدر الحاجة.

- لا تجعل إفادتك تتجاوز الحد المطلوب.

2- قاعدة الكيف / النوعية (Maxime de qualité): يقصد منها منع ادعاء الكذب أو

إثبات الباطل و تتفرع إلى:

-لا تقل ما تعتقده خطأ.

-لا تقل ما ليس لك عليه دليل.

3- قاعدة العلاقة / المناسبة/الملاءمة: (Maxime de relation) الهدف منها منع المتكلم

من أن ينحرف إلى مقاصد أخرى غير التي استهدفها الخطاب و تقول هذه القاعدة:

- ليكون كلامك مناسباً لموضوع الحوار.

4- قاعدة الطريقة / الكيفية (Maxime de manière): تختلف عن القواعد السابقة

كونها لا تتعلق بما قيل، بل بما يراد قوله و الطريقة التي يجب أن يقال بها، و الهدف منها
تجنب الاضطراب و الملل. و ترتبط عموماً بالقاعدة الأساسية "كن واضحاً" و التي تتفرع إلى
ما يلي: تجنب الالتباس، تكلم بإيجاز، كن منظماً /مرتّباً و تجنب الغموض. ولكي نوضح
هذه القواعد نسوق المثال الآتي:

الزوج: أين أجد الحقائق ؟

الزوجة: في أسفل الدرج.

في هذا الحوار القصير تتحقق مبادئ الحوار كلها، تبدو الزوجة متعاونة، فلقد أجابت إجابة واضحة (الكيفية)، وكانت صادقة (الكيف)، واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون أن تزيد (الكم)، وأجابت إجابة ذات صلة بالسؤال (المناسبة) ولذلك لم يتولد عن قولها استلزاما.

هناك من يرى أن مبدأ التعاون عند غرايس مبني على نزعة إنسانية خيرة مفترضة، إلا أن غرايس يعتبره ببساطة وسيلة لشرح كيفية وصول الناس للمعاني. من المؤكد أنه ليس هناك أي اعتقاد أن الناس صادقون ومخبرون ويعنون ما يقولون بالضرورة، ومن هنا كما قال غرايس، "بإمكاننا أن لا نختار التعاون ويمكن أن نمتنع عن الإدلاء بأية معلومة بقولنا: لا أستطيع قول شيء، أو: وعدت بعدم الكلام..."⁽¹⁶⁾ ولذا لا يمكن وصف كل التبادلات الحوارية بالتعاون، نأخذ الاستجواب على سبيل المثال، فليس من المتوقع أن أياً من الطرفين ينتظر أن يحترم الآخر مبدأ التعاون أو القواعد الحوارية.

إذا تمّ الخروج عن إحدى هذه القواعد نتج عنه ما سمّاه غرايس بالاستلزام الحواري، وكان غرايس قد ميّز بين هذا الأخير وبين الاستلزام العرفي مبيناً الفرق بينهما.

3. 2-أنواع الاستلزام:

3. 2. 1- الاستلزام العرفي/ التواضعي / المعجمي: (l'implicature conventionnelle/

lexicale)

يمكن أن يساعد المعنى المعجمي للكلمات في معرفة ما قيل صراحة، وما تضمنه القول أيضاً".⁽¹⁷⁾ بإمكان المتكلم أثناء عملية التواصل أن يتعدى ظاهر ما تعنيه الجملة وذلك باستعمال ما اصطُح عليه من معاني الكلمات وتركيب الجملة، وهنا " لا يلعب السياق أو مقام التواصل أي دور في تأويل القول"⁽¹⁸⁾، أي أن القول لا يحتمل سوى معنى واحد، ومثال ذلك ما يلي:

(1) أحمد جزائري، إذن هو وطني.

من دون شك أن المتكلم هنا يؤكد أن وطنيته تنبثق من كونه جزائرياً، غير أنه لم يُلزم نفسه بأنه قال ذلك، لأنه تضمنها في قوله⁽¹⁹⁾، و بإمكان المتلقي التوصل إلى هذا الاستلزام من خلال معنى "إذن" المعجمي (النتيجة) دون اللجوء إلى سياق الحوار.

2.2.3- الاستلزام الحواري / التخطائي / غير العرفي:

(l'implicature non conventionnelle/conversationnelle/discursive)

يشير غرايس إلى أنه "يوجد نوع آخر من الاستلزمات، غير العرفية و التي أسميها استلزمات حوارية و المرتبطة ببعض الأصول العامة للخطاب"⁽²⁰⁾، ومن ثمة فبدل التحدث عن معاني الكلمات و الجمل يُنظر أساسا في الشروط المناسبة لاستعمال العبارات كالسياق و المقام و القواعد الحوارية. وقد قسّم غرايس الاستلزام الحواري إلى نوعين: الاستلزام الحواري المعمّم والاستلزام الحواري الخاص.

أ- الاستلزام الحواري المعمّم: (l'implicature conversationnelle généralisée)

هو الاستلزام الذي دخل في الاستعمال، وينتج طبيعيا (Naturally) بواسطة استعمال بعض التراكيب اللغوية و المعاني المعجمية للكلمات، و يكون بذلك مستقلا عن السياق، و نمثل لذلك بما يأتي:

(1) دخلت بالأمس منزلا⁽²¹⁾.

يريد المتكلم هنا أن يقول بأنه دخل منزلا أجنبيا، ليس منزله، و بإمكان المتلقي فهم هذا القصد من خلال استعمال المتكلم للنكرة "منزلا". وتختلف هذه الجملة عن: دخلت بالأمس منزلي و دخلت بالأمس إلى المنزل.

وتكون الحال نفسها – حسب غرايس- إذا استعملنا كلمات نكرة مثل: حديقة، سيارة، معهد⁽²²⁾...

ب- الاستلزام الحواري الخاص:

"هو حاصل علاقة القول بالسياق و الظروف الخاصة بمقام التواصل"⁽²³⁾، أي هو الاستلزام الذي لا يمكن فهمه أو استنتاجه إلا باستغلال السياق و ظروف التواصل الخاصة بكل حوار، فلو قال أحدهم:
-البرد شديد في هذا المكان و كان يرغب في أن يغلق المخاطب النافذة، فيكون قصده:
" أغلق النافذة".

3.3- كيف يحدث الاستلزام الحواري؟

تعتبر قواعد الحوار الأربعة مبادئ هامة لتأويل الأقوال، ويمكن للمتخاطبين احترام هذه المبادئ كما يمكنهم خرقها، هناك ثلاث حالات للتعامل مع قواعد الحوار، احترام القواعد، خرق القواعد و استغلال القواعد، وهي ما يشرح كيفية حدوث الاستلزام الحوارية التي نجملها في الجدول الآتي: (24)

أنواع الاستلزام	كيفية حدوث	طرق خرق القواعد	احترام مبدأ التعاون	احترام قواعد الحوار
-الاستلزام التواضعي/العري	استغلال معاني بعض الحروف و الأدوات	احترام القواعد	نعم	نعم
الاستلزام الحوارية	خرق القواعد	تعارض بين قاعدتين تُخرق إحداها لأجل تحقيق الأخرى	نعم	نعم/لا
		خرق غير مقصود (خطأ) لقاعدة حوارية .	نعم ولكن إخفاق التواصل	لا
		خرق مقصود لقواعد الحوار (الكذب)	لا	لا
	استغلال القواعد الحوارية	خرق مقصود للقواعد الحوارية .	نعم	لا ولكن نجاح التواصل

حسب الجدول المُقدّم فإن الاستلزام الحوارية يحدث نتيجة خرق القواعد الحوارية الأربعة بطرق مختلفة مع احترام أو عدم احترام المبدأ العام، كما يتمّ عن طريق استغلال القواعد. وفيما يلي مثالين عن خرق و استغلال القواعد على التوالي: مثال1: قد يحدث وأن تتعارض قاعدتان، حيث أن احترام إحدهما يؤدي إلى خرق الأخرى، يختار المخاطب ما يريد من هاتين القاعدتين و يحافظ دائما على مبدأ التعاون (25)، و يقدم غرايس مثالا لذلك:

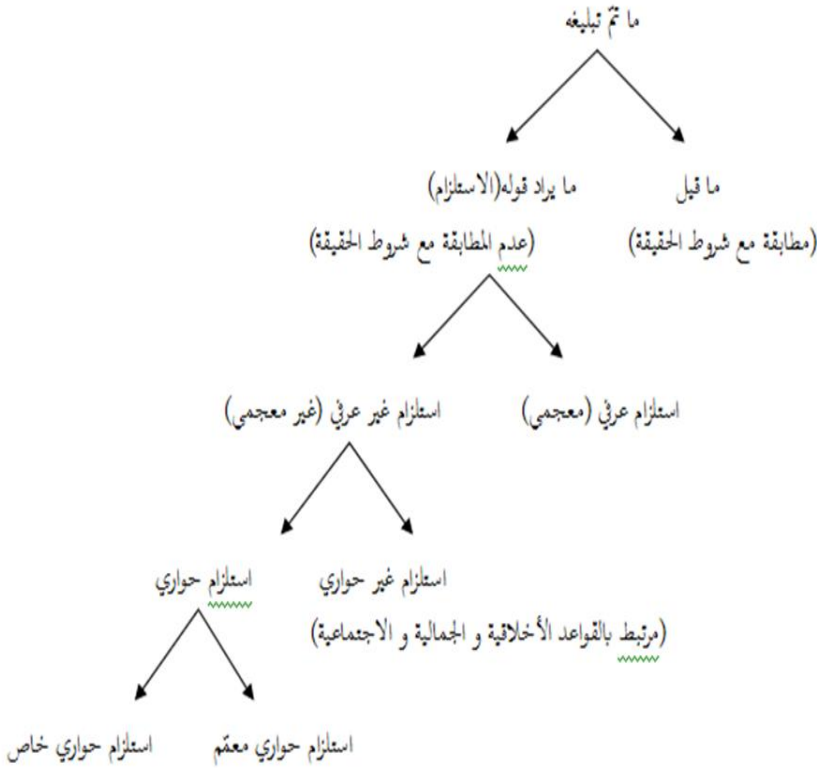
-يفكر (أ) في زيارة إلى فرنسا ويريد رؤية (ج) هناك، لكنه لا يعلم تماما عنوان بيته فيسأل (ب) عن مكان (ج).

فيجيب (ب): في مكان ما في جنوب فرنسا⁽²⁶⁾.

لا يوجد أي دافع هنا للتفكير بأن (ب) يرفض التعاون كما أن إجابته -كما يعلم - ليست إخبارية بما فيه الكفاية. هو خرق لأول قاعدة من قاعدة الكم، ويُفسّر هذا الخرق في ظل الاعتقاد بأن (ب) خرق قاعدة الكم من أجل الاحتفاظ بقاعدة الكيف، فاستلزم قوله أنه لا يعلم بالضبط أين يقطن (ج)، ولأنه متعاون لا يريد تقديم معلومة خاطئة أو كاذبة.

مثال 2: قد يخرق المتكلم قاعدة من قواعد الحوار متمعدا وبشكل صريح مع احترام مبدأ التعاون، ولا يقصد تضليل المخاطب أو الكذب عليه⁽²⁷⁾. وحسب غرايس فإن اختيار المتكلم لخرق القواعد إنما هو في الواقع استغلالها، ويتولد عن هذا الاختيار استلزام حوار⁽²⁸⁾. ولعل أهم ما يمثل استغلال قاعدة الكم الأولى هي العبارات التكرارية⁽²⁹⁾ المستعملة في اللغة اليومية والتي لا تحمل في ظاهرها أي معلومة، ويمكن للمتلقى أن يكتشف معنى هذه العبارات المستلزم بالنظر إلى مدى قدرته على تفسير سبب اختيار المتكلم لهذا النوع من العبارات، ومثال ذلك ما يأتي:
-النساء هن النساء⁽³⁰⁾.

على مستوى الجملة لا يقول المتكلم شيئا، ولكن على مستوى التواصل (ما يراد قوله) فإنه يعني: النساء متسرّعات، غير مستقرات على رأي، متقلبات المزاج... إلى جانب هذا، يمكن أن ينتج المتكلم قولاً غير حقيقي أو مجازي، وحسب غرايس فإن استغلال قاعدة النوعية هي ما يشرح بعض أوجه المجاز³¹، كالسخرية والاستعارة والتقديم والتفخيم/المبالغة.
ويمكن أن نجمل ما قلناه عن الاستلزام في المخطط الآتي:



- حدود قواعد غرايس والقواعد التهديبية:

رأى كثير من الدارسين أن قواعد غرايس تبقى قاصرة عن ضبط الحوار ومساعدة المتلقين على فهم الأقوال، ذلك أنه لم يأخذ بعين الاعتبار بعض القواعد الخاصة بالجانب التهديبي، التي اكتفى فقط بالإشارة إليها "هناك أنواع شتى لقواعد أخرى جمالية واجتماعية وأخلاقية مثل " لتكن مهذبا " التي يتبعها عادة المتحاورون في أحاديثهم والتي قد تولد معان غير متعارف عليها" (32).

ومن ثمّ كان لابد من اقتراح قواعد مكملّة لقواعد غرايس، و من المبادئ التي أضيفت إلى ما اقترحه غرايس مبدأ التهذيب (Politeness Principle) لروبن لاكوف (Robin)lakoff "كن مؤدّباً" (33)، و مبدأ التواجه (Face principle) عند كل من براون (Brown) (Ivensen) و بصاغ على النحو الآتي: " لتصن وجه غيرك " (34)، إضافة

إلى مبدأ التأدب الأقصى واعتبار التقرب لجورج ليتش (Leech.G) الذي اعتبره مكملًا لمبدأ التعاون⁽³⁵⁾.

غير أن طه عبد الرحمان في دراسته لهذه المبادئ وجد بعض الثغرات أوجبت إيجاد مبدأ يأخذ بالتقرب الصادق، ويجرده من الغرضية، سماه مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص⁽³⁶⁾: عُرِفَ هذا المبدأ في التراث الإسلامي وعُرِفَ صوراً مختلفة منها " مطابقة القول للفعل وتصديق العمل للكلام".

5- نماذج تطبيقية من سورة "طه":

5.1- السياق العام للسورة: سورة طه هي سورة مكية، نزلت قبل "الواقعة" وبعد "مريم"، وهي السورة الخامسة والأربعون حسب ترتيب النزول. حيث تدخل في زمرة السور التي نزلت في الوقت الذي ازدادت فيه حدة توتر العلاقة بين مشركي قريش والمسلمين، لأن الدعوة المحمدية كانت قد دخلت "مرحلة التركيز على التوحيد ما يعبر عنها في كتب التفسير والسيرة بـ (التعرض للأصنام)"⁽³⁷⁾، وهي فترة تميزت بمعارك قوية ضد الشرك وعبادة الأصنام، وفي المقابل تعرض النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى شتى أنواع الأذى، كان من نتائجها اضطراب الكثير من المسلمين للهجرة إلى الحبشة بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم بين السنتين الخامسة والسادسة للنبوّة وهي الهجرة الأولى.

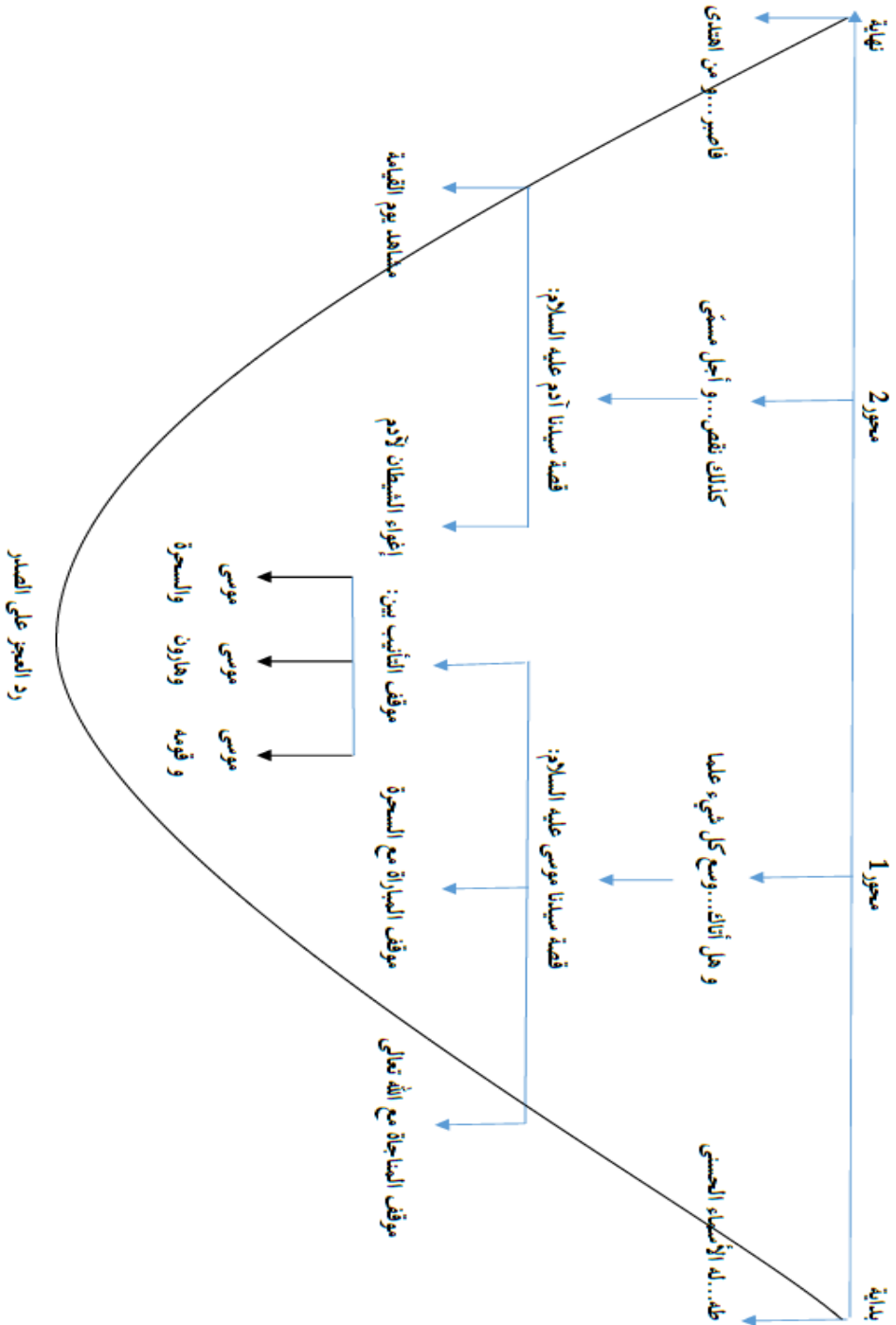
ولعل أهم ما ورد بصدد هذه السورة هو ارتباطها بإسلام عمر بن الخطاب⁽³⁸⁾ الذي كان قبل إسلامه يتصدى للإسلام ويخافه المسلمون حتى إنهم كما كان عبد الله بن مسعود يقول: "ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه."⁽³⁹⁾

ونزلت هذه السورة لتسلي النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده وتهون عليه ما يلقيه من إغراض قريش، وتؤكد له أن الله تعالى لم ينزل عليه القرآن ليجعل منه سبباً للشقاء⁽⁴⁰⁾ والمعاناة ولا ليفرضه على قريش، فالقرآن إنما هو تذكرة، وأما من أصر على الكفر فسيلقى جزاءه.

و رُوي عن سبب نزول هذه السورة⁽⁴¹⁾ قول مقاتل: قال أبو جهل و النضر بن الحارث للنبي صلى الله عليه و سلم: إنك لتشقى بترك ديننا. و ذلك لما رآياه من طول عبادته و اجتهاده، فأنزل الله تعالى: «طه (1) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2)» (طه: 1 - 2) ، و ما جاء أيضا في كتاب الواحدي النيسابوري⁽⁴²⁾: أخبرنا أبو يحيى قال: حدثنا أبو مالك عن جرير، عن الضحاك قال: لما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه و سلم قام هو و أصحابه فصلوا، فقال كفار قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد صلى الله عليه و سلم إلا ليشقى به. فأنزل الله تعالى: "طه"، يقول يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى".

6. 2- بنية السورة: استنادا إلى التقسيم الموضوعي الذي أورده الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير" فإن بنية السورة تتضح لدينا كالآتي:

تبدأ السورة كما تُختم بخطاب موجه للنبي صلى الله عليه و سلم لبيان مهمته و حدود تكاليفه، فليست بشقوة فُرضت عليه، وإنما هي فضيلة الدعوة و التذكرة؛ دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد الذي لا إله غيره، و تذكريهم بيوم يرجعون فيه إلى الله، و ليس عليه صلى الله عليه و سلم من شيء إذا لم يؤمنوا، ولا يشقى إذا كذبوا و كفروا بعد ذلك. و بين البداية و النهاية، تعرض السورة لمحورين أساسيين ينضوي تحتهما مجموعة من الموضوعات نجملها في المخطط الآتي:



3- الحوار في سورة "طه": تغلب على السورة في شكلها العام المقاطع الحوارية خاصة في قصة سيدنا موسى عليه السلام، حيث تم سرد الأحداث في ثنايا الحوار. أما قصة آدم عليه السلام فتتناوب فيها المقاطع السردية مع المقاطع الحوارية. والجدول الآتي يبين ما جاء في السورة من حوار.

القصة	الحوار	الغرض
قصة سيدنا موسى عليه السلام	حوار موسى عليه السلام مع ربه بالواد المقدس طوى	تكليف موسى عليه السلام بالرسالة
	حوار موسى مع فرعون	للدعوة و لأجل إطلاق بني إسرائيل
	محادثة بين موسى و السحرة	دعوتهم لعدم الافتراء على الله
	حوار فرعون مع السحرة	وعيدهم بالعذاب لأنهم آمنوا بموسى
	حواره تعالى مع موسى	يلومه لتعجله عن قومه
	حوار موسى مع قومه (بني إسرائيل)	يؤنبهم لاختناهم العجل آلهة من دون الله
	حوار موسى مع أخيه هارون	يلومه لسوء خلافته في قومه
	حوار موسى مع السامري	تحديد عقوبته في الدنيا و الآخرة
قصة سيدنا آدم عليه السلام	حوار المجرمين بعضهم مع بعض يوم القيامة	بيان اختلاف الأزمنة عليهم و جهلهم بأنهم
	وسوسة الشيطان لآدم عليه السلام	لإغرائه بالملك و الخلد
	حواره تعالى مع من يحشر يوم القيامة أعمى	ليبين له سبب حشره كذلك

سنقوم الآن بتحليل نموذج من الحوار في قصة سيدنا موسى عليه السلام من الآية 47 إلى الآية 52.

تدخل هذه المحاور في سياق الدعوة إلى الله، لكن الدعوة هنا مع فرعون الطاغية الظالم، الذي يدعي الربوبية: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى (24)» (النازعات: 24) ويرغم الناس على طاعته، ويرفض الرجوع إلى الله تعالى «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى» (طه: 56)، كما أن العلاقة بين سيدنا موسى عليه السلام وفرعون علاقة تنافر، فموسى عليه

السلام قتل قبطيا لأجل إسرائيلي، الشيء الذي أثار غضب الأقباط المقربين من فرعون. فبنو إسرائيل كانوا مستعبدين ويُرغمون على القيام بالأعمال الشاقة ويُعذبون ويُقتلون، وفي قتل قبطي لأجل إسرائيلي إهانة للأقباط لم يقبل بها فرعون ووعدهم بالقصاص من موسى عليه السلام.

أما مكان المحاورة فهو مملكة فرعون أو مدينته وفي «فَاتِيَاهُ»، والإتيان الوصول والحلول بالمكان الذي يتواجد فيه فرعون، ومن المتوقع جداً أن يكابر فرعون ويرفض دعوة نبي الله موسى عليه السلام، فهو الحاكم، يتواجد وسط قومه، في مدينته، ولا يوجد ما يربطه بموسى عليه السلام إلا ما كان يمين به عليه « قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ » (الشعراء: 18)، وما كان له ذلك لو لم يستعبد بني إسرائيل ويقتل أبناءهم «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الشعراء: 22)، فلو لم يفعل ذلك لكفله أهله عليه السلام.

قال موسى وهارون لفرعون: « فَاتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) » (طه: 47 - 48)

بدأ موسى وهارون عليهما السلام حديثهما بـ " إِنَّ " ليكون الخبر مؤكداً ولا يكون في نفس فرعون شك من كونهما رسولا رب العالمين مع أن المقام مقام إخبار وابتداء. وفي هذا القول تضمين، فموسى وهارون عليهما السلام تقدما هذه المرة إلى فرعون بصفة غير التي يعرفها ويستلزم قولهما: "نحن مبعوثان من عند الله عز وجل فخطابنا كرسولين" مستغلين بذلك قاعدة الكيفية ليقولا إضافة إلى المعنى الظاهر شيئا آخرًا، وعلى أساس أنهما رسولان يطلبان من فرعون أن يطلق سراح بني إسرائيل الذين كانوا مستغلين من قبل الأقباط في البناء وحمل الحجارة"⁽⁴³⁾. وجاء الأمر هنا والنهي (فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم) مطابقين للمقام ولقواعد الحوار الأربعة، وفي النبي إشارة إلى تعرض بني إسرائيل للتعذيب من قبل فرعون.

أما قولهما: « قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى » فهو دليل قولهما: «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ»، فلكل نبي معجزاته ومعجزة موسى عليه السلام في العصا. فمن آمن فعليه سلام الله من العذاب وفي هذا « وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى »

استغلال لقاعدة الكيفية ويستلزم هذا القول: "أسلم إن كنت تريد النجاة من العذاب" وهو مقدمة للإنذار الذي يلي هذا القول «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ»، وهو استلزام حوارى خاص ناتج عن استغلال قاعدة الكيف وتقدير القول: "إن كذبت وتوليت، فإنك ستلقى العذاب" وهو كناية عن التحذير من العذاب في حال التكذيب والإعراض.

قال فرعون: «فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ» (طه: 49) وجّه فرعون الخطاب إليهما بالضمير المشترك، ثم خصّ موسى بالنداء، لعلّهم أن موسى هو الأصل بالرسالة وهارون تابع له وكذلك لأن موسى معروف في بلاط فرعون فقد تربّى فيه، وفي سؤاله إنكار وإعراض ورفض للاعتراف بربوبية الخالق تعالى لذلك قال فرعون: «رَبُّكُمَا»، ولم يقل «ربي» كما خوطب «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ». ويظهر جليا رفض التعاون من قبل فرعون وعدم احترامه لقواعد التهذيب فهو يعارض و يتكلم بسخرية، فأولا يخرق قاعدة الكيف ليخفي وراء سؤاله غير البريء كفره، ثم إنه يخرق متعمدا قاعدة المناسبة، فقد كان موسى عليه السلام وأخوه قد طلبا منه إطلاق سراح بني إسرائيل، إلا أنه لم يعر لطلبهما اهتماما ويسأل عن الشيء الذي يهدد مكانته بين الناس.

وتجيب إجابة موسى عليه السلام عن سؤال فرعون مطابقة لقاعدة المناسبة فيستعمل لفظ "ربنا" قاصدا إثبات الربوبية لله تعالى لجميع الموجودات، «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ» مستعملا قاعدة الاستدلال (بالكلية على الجزئية)، فرعون من جملة الأشياء، وحيء بفعل الإعطاء للتنبيه على أن الخلق والتكوين نعمة، فهو استدلال على الربوبية وتذكير بالنعمة معا⁽⁴⁴⁾، وفي هذا القول استغلال لقاعدة الكيفية فموسى عليه السلام ذكر حجة تثبت ربوبية الله والقصد منها دفع التساؤل في نفس فرعون: تأمل هل أنت أعطيت الخلق؟، تأمل فإن الرب هو الذي أفاض الوجود والنعم على المخلوقات كلها، وهذه الصفة هي الموصلة إلى الاعتقاد الحق. إضافة إلى ذلك فإن في كلامه ترتيب زمني ورتبي، أي أنه تعالى خلق الأشياء ثم هدى إلى ما خلقهم لأجله، وفي القول كله إيجاز، فعلى اختصاره يجمع بين نعم الله تعالى على خلقه «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ» (البلد: 8 - 9) ، وهدية إياهم للطريق الموصلة

إلى النجاة، وفرق بين طريق الحق وطريق الضلال لمن يرغب في الهداية والفلاح «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» (البلد: 10)، وهو قوام الحياة كلها.

قال فرعون: «فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى» (طه: 51) هنا يبين فرعون بسؤاله عدم تعاونه مع مخاطبه حيث يسأل عن الأقسام السابقين، وعن أحوالهم بعد الموت⁽⁴⁵⁾ محاولاً تعجيز موسى عليه السلام، وهذا استلزام حوارى معمم، جارٍ في الاستعمال، ففرعون لا ينتظر جواباً من موسى عليه السلام، ويعلم موسى عليه السلام أن خصمه يرغب في تعجيزه ليسقط مصداقيته أمام الحاضرين.

قال موسى عليه السلام: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى» (طه: 52) أما سيدنا موسى عليه السلام، فقد علم قصد فرعون المخادع لإبطال دعوته، فأجاب إجابة يصرف بها فرعون عن الخوض فيما لا يجدي في مقامه ذلك من أحوال الأموات والاشتغال بالأحرى بالغرض الذي جاء من أجله. ففي قوله: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ» استلزام حوارى خاص، يستغل من خلاله قاعدة المناسبة، فهو لم يقل صراحة "لا علم لي بهم" وإنما نسب علم حالهم لله تعالى عالم الغيب. أما استعماله للفظ "كتاب" فيحتمل أن يكون الكتاب هنا مجازاً في تفصيل العلم شبيهاً له بالأمور المكتوبة⁽⁴⁶⁾، لذلك قال: «لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى» ليستغل موسى عليه السلام بهذا القول قاعدة الكمية الثانية لصالح قاعدة الكيف، فهو يقصد بإضافة «لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى» إثبات بعض من صفات الربوبية وهو ما لا يملكه فرعون مدّعي الربوبية وكان يكفي أن يقول: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ»

7- خاتمة:

حاولنا تحليل الحوار في الخطاب القرآني من خلال سورة "طه"، مطبقين بعض آليات المنهج التداولي خاصة ما تعلق منه بقواعد الحوار وما ينتج عن خرقها من استلزام حوارى مركّزين على مقام التلفظ بمختلف عناصره من باثّ و متلق، و مكان و زمان المحاور، وظروف إنتاج المعنى ككل، و هذا من أجل التوصل إلى مقاصد المتحاورين.

وقد ساعدنا هذا التحليل في تتبع القصص القرآني من خلال أقوال المتحاورين، وكشف التحليل عن أغراض المتحاورين و المقاصد التي يرمون إليها ليظهر تلاعب و

سخرية فرعون، بعبارة أخرى رفضهم التعاون مع موسى عليه السلام. لنفهم أنّ الله تعالى، وهو الأعلّم بالنوايا، أهلك فرعون و هامان و جنودهما لعلمه بعدم وجود نية لديهم للإيمان.

و الحقيقة أنّ المقاصد تظهر من خلال أقوال المتكلمين، و ربما هذا سبب من أسباب استعمال الحوار إلى جانب السرد في القرآن الكريم.

8-الهوامش:

(¹) هيربرت بول غرايس (Herbert Paul Grice) هو فيلسوف لغة، ولد في 13 مارس 1913 في برمنغهام (Birmingham، إنجلترا، المملكة المتحدة، درس في أكسفورد و درّس هناك الى غاية 1967 ليرحل بعدها الى الولايات المتحدة الامريكية للحصول على درجة الأستاذية في جامعة كاليفورنيا وليدرّس فيها إلى غاية وفاته سنة 1988. ينتمي غرايس الى مدرسة اكسفورد المتأثرة بفلسفة فتجنشتين، تأثر بأستين الذي ينتمي بدوره الى فلسفة " اللغة العادية"، فكلاهما كان مهتما بالطريقة التي تعبر فيها اللغة الانسانية عن المعاني كطريقة لفهم طبيعة الفكر و المنطق و التخاطب، هذا الاخير (التخاطب) الذي يعتبر لب الدراسات التداولية التي تربط اللغة بمستعملها، ومع ذلك لم يشر أي منهما الى هذا المصطلح في دراسته.

كان غرايس مثل أوستن يقدم شروحا لمحاضرات وليام جيمس. تُخصت محاضراته في مقال سنة 1975 بعنوان " المنطق والمحادثة "Logic and conversation".

كتب مقالا سنة 1948 من أشهر مقالاته بعنوان "meaning" "المعنى"، الذي يحمل أهم نظريات غرايس في المعنى وقد نشر سنة 1957 يضاف إلى هذا مؤلفاته:

- Studies in the way of words
- Utterer's meaning and intention سنة 1969.
- The concept of value، نشر سنة 1991.
- Aspects of meaning، نشر سنة 2001.

(²) هي فلسفة اللغة العادية (في مقابل اللغة المثالية أو الاصطناعية) التي مثلتها مدرسة أكسفورد الإنجليزية، من أصحابها راسل، فتجنشتين، أستين، سيرل، غرايس، ستروسن.... كان هؤلاء يدعون إلى تحليل فلسفي يقوم على استخدام اللغة العادية. ووجدوا أنّ اللغة لا تصف فقط الواقع ولكن تغيره، وأن الألفاظ و الجمل لا تحمل معنى محددا دائما بل تتعدد معانيها بتعدد استعمالها وتنوع السياقات الواردة فيها .

(³) Martine Bracops : Introduction à la pragmatique, les théories fondatrices : actes de langage, pragmatique cognitive, pragmatique intégrée, Edition université, Bruxelles , 2006, 1ere ed, p 91.

(⁴) Ibid, p 92.

(⁵) Jacques Moeschler, Antoine Auchelin, Introduction à la linguistique contemporaine, Armand Colin/HER, Paris, 2eme ed, 2000, p 165

(⁶) Grice : Logic and conversation, in Cole peter and Morgan Jerry, 1st ed : speech acts, in Syntax and Semantics. vol 3, New York, Academic press, 1975, p 43.

(⁷) Ibid.

(⁸) Ibid, P44

- (9) Martine Bracops, Introduction à la pragmatique, p 67.
- (10) جاك موشلار، آن روبول، التداولية اليوم، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية المترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص 63.
- (11) Grice, Logic and conversation, p 43-44.
- (12) فيليب بلانشيه، التداولية من أستين إلى قوفمان، تر: صابر الحباشة و عبد الرزاق الجماعي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط.1، 2012، ص63.
- (13) Grice, Logic and conversation, p 44.
- (14) جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، تر محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1992، ص 33.
- (15) Grice , Logic and conversation , p 45-46.
- (16) Martine Bracops, Op.Cit, P83 .
- (17) Grice , Logic and conversation, p43.
- (18) Martine Bracops, Introduction à la pragmatique, P 69.
- (19) voir Grice : Logic and conversation, p43.
- (20) Ibid, p 45.
- (21) Ibid.
- (22) Ibid, p56.
- (23) Ibid.
- (24) Martine Bracops, Introduction à la pragmatique, p81، بتصرف
- (25) Ibid, p 51.
- (26) Ibid, p 51-52.
- (27) Ibid, p84.
- (28) voir Grice :Logic and conversation, p52.
- (29) Ibid, P52.
- (30) Martine Bracops, Introduction à la pragmatique, P85.
- (31) Grice, Logic and conversation, p 53.
- (32) Ibid, p55.
- (33) طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1989، ص240.
- (34) نفسه، ص 243.
- (35) نفسه، ص 246.
- (36) نفسه، ص 249.
- (37) محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط4، 2012، ص209.
- (38) نفسه، ص 294.
- (39) نفسه، ص 295.
- (40) نفسه، ص 305.
- (41) علي بن أحمد الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، لبنان، 1991، ص312.
- (42) نفسه، ص312.

- (43) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، تعليق خليل مأمون شيما، دار المعرفة ، بيروت، 2009، ج20، ص657.
- (44) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، ص 232.
- (45) نفسه، ص234.
- (46) نفسه ، ص 235.

*** **